فى مقـــبرة جنوى

حيث تجاور الحياة والموت

للأستاذ فتحى رضوان

الساعة العاشرة فى الصباح . . . . . .

وجنوى تشملها شمس ايطاليا الهادئة ، ونحن على أبواب مقبرة جنوى

يا عجبى ! لم أسمع من قبل أن أجمل ما فى مدينة مقبرتها ، وأن السياح والراغبين فى التفريج عن النفس ، والجارين وراء لذائذ العقل والفكر ، يهبطون جنوى ، فلا يطلبون حدائقها ، ولا يقصدون متاحفها ، ولا يسألون عن حماماتها أو أسواقها ، بل يستحثون الخطى وغايتهم « المقبرة » ! !

فأى مقبرة هذه التى يهواها الناس ؟ أليست مكاناً اضطجع فيه الناس بعد هذه الرحلة الطويلة التى يقطعونها فى الدنيا ، بحثاً عن المال ، أو هياماً بالجمال ، أو عدواً وراء جاه المنصب . . . ؟ أما تضم الرفات بعد أن ذاب عنها اللحم الوردى ؟ أما تجمع العظام بعد أن تشتتت وانتثرت وانحلت روابطها ؟ أما تفوح منها رائحة الذكريات الحزينة : ذكريات الحبيب الذى ترك وراءه قلباً دامياً وعيناً دامعة ، وذكريات الولد الذى خلف الأم الولهى ، وذكريات الزوج الذى من ورائه أرملة ثكلى . . . ؟

أتكون مقبرة جنوى شيئاً يمحو من صدور اليتامى والأيامى والبؤساء والحزانى أحزانهم ويهدئ آلامهم ؟ إن تكن كذلك فهى أعجوبة أحرِ بالناس أن يقصدوها لا ليفرجوا عن أنفسهم برؤيتها ، بل ليحملوا اليها كل من فارقهم وكان عندهم عزيزاً ، ليشعروا ببرد العزاء وحلاوة السلوان

دلفنا نحو المقبرة ؛ ولست أعرف احساسى وقت أن دنونا من بابها ، فقد وقفت بنا السيارة أمام باب ضخم مفتوح على المصاريع ، وإلى جانبه حارس ؛ فلما اقتربت من الباب نظرت إلى الحارس ، وقد حسبت أن طول اقترابه من قبور الموتى جعل له مظهراً خاصاً به ، فاذا هو رجل عادى ، يرى كل يوم النعوش الرخيصة تتبعها أسر فقيرة ، والنعوش الغالية الثمينة ، ووراءه الأغنياء الذين يتأنقون فى الموت كما يتأنقون فى الحياة ، والموت يهزأ بهم ، وإن كانت الحياة تدللهم !

لقد تعود حارس المقبرة أن يرى أحزان الناس وصور شقائهم ، فبردت أعصابه ، وتفهت مآسى الناس عنده ، إذ رأى المتباكين الذين لا يحسون بألم ، والمفجوعين الذين لا يجدون دمعة يلطفون بها نار صدورهم ...

ولكن ياترى ماذا يفعل الحارس إذا أصابه القدر فى ابنه أو زوجته أو أمه أو حبيبته ؟ أتبقى أعصابه فى برودتها ونفسه فى شدتها ، ودموعه فى تحجرها ؟ أم أنه سيفهم آلام الناس من جديد على ضوء النيران المشبوبة فى صدره ، الملتهبة فى قلبه

تركنا حارس المقبرة ، ورأينا فى طريقنا عشرات من الحراس يلبسون على أكتافهم مآزر زُرقا من الصوف ، تقيهم برد الشتاء ، وتكسبهم وجاهة القواد والوجهاء ، وهم يتبخترون فى مشية عسكرية وخيلاء ، وقد جلوا شواربهم ورفعوها ، وحلقوا لحاهم وعطروها ، فما عاد هيناً أن تعرف إذا كان هؤلاء حكاماً جاءوا يتنزهون ، أم هم أشباح موتى ثقلت عليهم رقدة الموت ، فخرجوا يتمشون ويتنفسون . . . إى وربى إنهم أشباح ! فالواحد منهم على جلال مظهره ، وجمال ملبسه ، لا يعدو أن يكون تمثالا ؛ فالأيام تذوب وتدور ، وهم فى ممشى المقبرة واقفون ، يرفعون رءوسهم إلى السماء ، ويخفضونها إلى الأرض ، ويضمون خناصرهم وبناصرهم فى خواصرهم ، لا يشغلهم شاغل ! حسبهم من الحياة أنهم وقفوا على أبواب الموت ، تاركين وراءهم ضجات الناس وصيحاتهم ... بل حسبهم من الحياة أنهم يحملون أثقل أعبائها ، ويرون أصدق حقائقها ، فاذا جاءهم بعد ذلك الموت ، وجدهم كالموتى ، لا أوزار ولا أطماع ، ولا ماض يحاسبون عليه ؛ ثم وجدهم فى المقبرة ، يعرفون لحودها ويحفظون حدودها ، ويدركون مكانهم اللائق بهم فيها

لقد قسوت على حراس المقبرة ! وأحسب أن مظهرهم قد غرنى وخدعنى . . فكم تخفى الوجوه الهادئة نفوساً ثائرة ! وكم يحترق الذين يحسبهم الناس كسالى ونائمين ! ومن يدرى ؟ فلعل أحد هؤلاء الحراس شاب مغامر طاف بالأرض وجازف

بالمال القليل الذى كان بين يديه ، وبالحياة الغالية التى بين جنبيه ، ثم قذف به القدر حارساً لمقبرة ، وهو أبعد الناس عن الموت وفكرته ، مشغولا بالحياة ولذتها . . ولكنه يسير كما يسير بقية الحراس ، مطرقاً متأملاً ، شاخصاً ، متألماً ، وهو مستغرق فى أفكار نفسه وبوده لو يواتيه القدر فينطلق من جديد . . .

لقد طالت وقفتى بحراس المقبرة . . .

هذه هى المقبرة ، وقد لاحت من بعيد شواهد القبور ، فأفلتت منى ضحكة أعرفها من نفسى كلما جاشت فيها خواطر ، واحتدمت ضحكة يحسبها الذين معى أنها استخفاف بالذى أرى أو انصراف عما أرى ، وهى ضحكة النفس التى أسأمتها صور الحياة المتشابهة ، وقد أفرحها أن ترى الحياة والموت متجاورين ، فلا الموت جعل مظهر الحياة عابساً ، ولا الحياة جعلت مظهر الموت تافهاً ... ضحكة الذى رأى الحياة وقد حنت على الموتى ، فجعلت لهم مساكنهم وزينت لهم حدائقهم ، بل ضحكة الذى سره أن يرى مظاهر الحب الانسانى وقد تجسدت تماثيل وشواهد . . بل وقد تضوعت زهوراً وعطورا . . .

هذه هى مقبرة جنوى . فأى فرحة شملت نفسى ! وما بالى أرى الدنيا من حولى ضاحكة ؟ هل أستخف أمام الموت بالموت الذى جم فى هذا المكان مئات الألوف من الموتى : صبياناً لم يتجاوزوا العقد الأول من أعمارهم ، وفتيات صبايا أرى صورهن على قبورهن فأرى وجوهاً تترقرق بماء الحياة وتفيض بفتنة الأنوثة . . . ورجالاً قصف القدر عمرهم وعلى أكتافهم عبء عمل ناضج ؟ . . .

الشمس فى السماء شمس رحيمة لا تحرق البدن ، ولا تلفح الوجه ؛ تحف بها السحب ، والمكان هادىء لاجلبة وحتى لا بكاء . . وأنا مستغرق فى تأملاتى ، وإخوانى قد سبقونى وأصواتهم تصل إلى من بعيد ! لقد هدأت نفسى ، وذابت فى أعماقها الضحكة التى كنت أسمعها بأذنى صوتاً ، ويراها صحبى بشرا . . . ما بال الدموع قد ملأت عينى ؟ ما بالى لا أرى شيئاً ، ولا أسمع شيئاً . . ؟

لقد أفقت على وقع أقدام من بعيد : أقدام تطرق الأرض طرقاً حاداً ، ولكنه رفيق . . . عالياً ، ولكنه موزون . . فما تحركت ولا تركت مكانى ، بل بقيت مسترسلاً فى هذه الخواطر التى لم أكن أعرف لونها ولا سرها ، لأنها كانت تبدو لتختفى ، وتتعارض وتتقابل ، وتجتمع وتفترق ، وتهدأ وتشتد . . خواطر أشبه بهواجس النائم الذى شغلت ذهنه قبل نومه ألف فكرة ، فتحركت جميعاً حينما أغفى

لعلى لمت نفسى وأنا مطرق على قسوتها على الذين أحبونى وأخلصوا الحب ، فشغلتنى عنهم شواغل الحياة ، فتألموا صامتين ، وودعونى عند السفر باكين ، بل صابرين ... أو لعلى لمت نفسى إذ رسمت لنفسى طريقاً محفوفاً بالصعاب ، فوهنت حيناً ، وأغفيت حيناً ، وجدفت وتشككت أحياناً . . ولعلى لمت نفسى لأنى أحببت ألوان الجمال جميعاً ، فما تغذيت بلون منها ، ولا شبعت بها جميعاً . . .

لعلى لم ألم نفسى . . .

اقتربت الأقدام منى ، فاذا بشبح أسود يمر سريعاً دون أن أراه . . ولكنى أميق فأتبين فى الشبح فتاة تلبس الرداء الأسود الحزين وفى يدها طاقة ورد ، وعلى وجهها مسحة ألم ، وهى فى مشيتها لا تلقى بالا لما حولها

هذه الفتاة ليست إلا قصة حزن من قصص الحزن التى سجلها الحفار تمثالاً ، والتى سجلها الزمن أجساداً تسير فى الدنيا بلا أرواح ، مشغولة بالذين راحوا ، ولا عودة لهم بعد الرواح . .

تبعتها ، ولم أر بعد وجهها ، وقد أحسست أن نصف حزنها قد خف ولطف ، فقد قاسمتها الهم الذى تنوء من تحته ، والألم الذى تشكو من وخزه ، والحرمان الذى تبكى لطوله وعنفه . لقد بدت لى هذه الفتاة فى ثوبها الأسود ، ووشاحها المسدل ، وإطراقتها الطويلة ، الانسانية التى تنبعث آلامها من آمالها ، فقد تكون هذه الفتاة قد اقبلت لتضع على قبر حبيبها طاقة زهر ، أو تنثر فوقه دموع عينيها ، وقد كانت بالأمس تمنى نفسها أن تكون له ويكون لها . . .

انطلقت الفتاة وكأنها تعدو ، واخترقت الدهاليز ، واجتازت الابهاء ؛ وبعدت عن صحبى ، ولعلى بعدت عن نفسى ، وخيل إلى أن الفتاة لا تقصد قبرا ، وأن القبور تساوت أمامها فكلها من الحجر الغالى ، وكلها منقوش ومصور ، وكلها أصم أبكم ، بارد جامد لا يلين تحت يد ، ولا يلتهب لوقع قبلات المحزونين المكروبين .

أتقودنى هذه الفتاة إلى مجهول ، أم أن دنيا الأحزان هكذا

متسعة ، والطريق إليها يطول ويطول ... ؟ ولكن الفتاة لم تلبث أن انحرفت إلى دهليز ضيق ، ثم خطت خطوتين ، وركعت أمام قبر من الرخام الأسود ، ورسمت الصليب ، وأغمضت عينيها ... كان النور ضعيفاً ، باهتاً ، وكان المكان ساكنا ساكتا ، فابتعدت عنها خطوتين ووقفت أتأملها ، ولكن الشمس لم تلبث أن خطت فى السماء خطوتين ، ثم سقط نورها من نافذة من الزجاج زرقاء ، فرأيت هذه الفتاة تمثالا افتنت فيه يد صانع الطبيعة ، فاجتمع فيه ألف معنى ، فلو سألتنى أهذه الفتاة طفلة تتشبث بصدر أمها ، ولم تتجاوز بعد الأعوام الأولى من عمرها ، لقلت « نعم ! » . ثم لو عدت وسألتنى : أهذه الفتاة صبية لاهية تائهة فى الدنيا ساهية ، لقلت « نعم ! » . ثم لو رجعت إلى السؤال فقلت : أهذه الفتاة شابة اكتملت أنوثتها ، ونضجت فتنتها ، لقلت « نعم ! » ثم لو ألححت فى السؤال فقلت : أهذه الفتاة امرأة أثارت الدنيا شهواتها ، ولم تضعف الأيام نزواتها ، لقلت « نعم ! » . ثم لو كان بعد ذلك فى مكنتك أن تسأل فقلت : أهذه عجوز شيبت السنون رأسها ، وهدت البأساء نفسها ، لقلت « نعم ! » . لقد أطلت النظر إلى وجهها ، فرأيت الرجاء والتوسل ، والبكاء والتهدم ، والاطمئنان والاستسلام ، والثورة الجائحة ، والشك فى رحمة الرحمن ...

لمست القبر وقبلته ، واقتربت منه وعانقته ، وأسلمت رأسها وقد انسدل وشاحها على ظهرها ، وبدا لى أنها تشرق تطلب ماء لغصة فى حلقها ، ولكنها رنت إلى السماء بوجهها ، فرأيت أنها تطلب من الله ماء العيون .. فلقد تحجرت عيناها فلا بكاء ولا دموع ... !

انتصبت الفتاة واقفة ، ثم رفعت من فوق القبر قنديلا صغيراً كادت تخبو شعلته إذ أوشك زيته على النفاد ، وملأت القنديل بزيت من زجاجة كانت معها فاشتعل القنديل وتوهج ، ثم ذهبت إلى الناحية الأخرى من القبر وملأت القنديل الموجود هناك ، ثم رفعت طاقة الزهر التى كانت معها فوضعتها على القبر وتمتمت ثم رسمت الصليب وانطلقت وقد زاد وجهها شحوباً ، ووقفت حيث كنت متأملا فى نور هذا القنديل ، مشفقاً على هذه الانسانية التى لا تدرى كيف تعبر عن حزنها ولا عن ألمها . . . ماذا يفعل هذا النور الخافت فى هذا الدهليز الضيق ؟ وما الذى يفيده الفقيد الراحل من الزهر المنثور فى القبر ومن القنديل ومن تجديد الفتيل . . . إنه ذهب ولن يعود ... ولكن الحياة لا تعترف بأنها فقدت من الموتى كل شىء ، فهى تحدثهم بلغة الأنوار والأزهار ، وهى تناجيهم بالتماثيل والتهاويل ، وهى تسمعهم الأغانى والتراتيل . . . أكل تفعل ذلك كله من أجل الموتى ؟ أومن أجل نفسها ؟ أهى تتشبث بالذين ذهبوا أم تتعلق بالدنيا التى تتجدد وتتطور وتزداد كل يوم جمالا وافتتانا ؟ . . . ما أقوى الحياة فى بدايتها ! وما أقواها فى نهايتها !

لكن هذه الخواطر الغامضة لا تنتهى ، لأن كل شىء فى المقبرة يفجر فى النفس ينابيع التأمل والاستذكار ، فلا يزور المقبرة من شىء أو شخص ينتزعه من هواجس نفسه وخواطرها . وقد كان الذى انتزعنى دليلا من أدلاء المقبرة تقدم إلىّ وعلى عينيه مناظر لامعة ، وسألنى كم من الوقت أريد أن أقضى فى المقبرة . قلت لأصرفه عنى : « دقائق قليلة » ؛ فقال حسنا . اتبعنى . فتبعته وأنا أسائل نفسى ماذا يستطيع أن يقول هذا الدليل وقد تكلمت التماثيل والأحجار ، ونطقت القبور والأنوار ، وسالت الفجيعة من كل ركن من أركان المقبرة ولكنه قادنى إلى تمثال أنيق لراهب وانطلق يذكر صانع التمثال وشهرته ، وتاريخه وبدائعه ، فأحسست أن الجو الشعرى الذى اشتملنى قد تبدد أرجه وعطره ، وشعرت أننى خرجت إلى دنيا التوافه ... دنيا الأرقام والاحصاء ، الدنيا التى لا ترى فيها إلا مكافحاً فى سبيل الرزق ، أو مدجلا من أجل الشهرة ، أو مغلوباً على أمره ، يبغى البقاء ويخشى أن يدهمه الفناء ...

قل أيها الدليل كل الذى فى جعبتك فانك لا تهوى الفن ولا تعشقه ، وليست هذه التماثيل فى حسابك إلا بقدر ما تدخل الجثة المسجاة فى سرير فى حساب « النادبة » التى تؤجج نيران الأسى فى قلوب ذوى الفقيد وهى لا تحس ألما ، بل تنتظر لعويلها ثمناً . مر بى على تمثال الجندى الشاب الذى صرع فى ميدان القتال فأقامت له أمه نصبا خلدت به ابنها ، فأبرز المثال صورته ، وقد أصابته الرصاصة فى صدره ، فوضع يده حيث اخترقته القذيفة ووقفت أمه من ورائه تحنو عليه . . .

مر بى أيها الدليل على تمثال الفتاة التى زفت الى خطيبها ،

فاتت فى شهر عسلها ؛ وعلى تمثال الغواص الذى هبط إلى أعماق البحر ولم يخرج ...

مر بى أيها الدليل فى الدهاليز ... وأشر بأصبعك إلى القطع البارعة التى احرقت أعصاب أصحاب الفن قبل أن تبرز إلى الوجود . . . لخص أيها الدليل أجل معانى الدنيا فى عباراتك الباهتة وقل هنا « قبور الأغنياء » ، وهنا قبور القرن الماضى ، وهنا قبور المتوسطين من الناس ... كأنى جئت هنا لأضع الموتى فى مراتبهم الاجتماعية ، ولأسأل عن وظائفهم ومقادير ثرواتهم وما حصلوا من مجد ، وما لاقوا من عنت .... قف أيها الدليل أمام أجمل فتنة فنية ؛ ثم لا تدعنى أتأملها لأنك تحسب أنك قلت لى عنها كل شىء إذ تقول إنها تكلفت أموالا كثيرة ..

ولتدخل بى أيها الدليل إلى دهليز طويل ، لأرى فى جداريه ادراجاً فأحسب أنها أدراج مكتبة وقفها بعض ذوى الثراء على الراغبين فى العلم الباحثين عن المعرفة حتى فى المقبرة ، ثم قل لى إن فى كل درج جثماناً ... وأن الادراج امتلأت بالموتى ولم يبق إلا اثنان ينتظران ميتين ...

إنها لمكتبة حافلة ! ولكن من يستطيع فك مغاليقها وفض أختامها ؟ واخرج بى أيها الدليل الى مقبرة الفقراء والمساكين الذين لا يقيمون لموتاهم نصباً ولا تماثيل . ولا تقل لى عدد الموتى ولا أعمارهم ... فانى هنا فى حديقة جميلة غناء ، بودى أن أقف فيها والشمس الهادئة تغمرنى ، والجبل الأشم يطالعنى ، والموتى الساكنون يغسلون بسذاجة قبورهم نفسى . . .

ولكن قل لى أيها الدليل ما بال هذا القبر يبدو عاطلا من كل حلية . ؟ « نعم ياسيدى لأنه قبر رجل غريب ! »

أيتها الانسانية المسكينة ! تشبثى بالفروق ، وتأنقى فى الموت ، وتأنقى فى الحياة ، وأقيمى لموتى الأغنياء قبابا ، واحفرى لموتى الفقراء لحودا ، ثم انظرى آخر الأمر ماذا بقى لديك فى يديك ؟ الموتى جميعاً أصبحوا (معروضات) فى متحف ، يرتزق بالتحدث عنهم دليل جاهل ، ويتسلى بالنظر الى صورهم زائر عابر ، ولا تبقى وراءهم إلا عبرة فى عين ، وحسرة فى قلب ، وعبرة لمن أراد أن يعتبر !

(جنوى) فخرى رضوان المحامى

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur والكلب المسعور

وأخذ بستور ورجاله الخلصاء يصوبون مجاهرهم على مواد يستخرجونها من أجسام موتى من الانسان والحيوان . ماتت بأمراض مختلفة الأجناس بلغت العشرات عداً ، وقضوا فى هذا ما بين عام ١٨٧٨ وعام ١٨٨٠ . كان بحثهم فى هذه الفترة به شىء من التخليط ، وتحسسهم فيها على غير هدى . ثم شاء القدر أو إرادة الله أن تضع تحت أنف بستور طريقة رائعة للتحصين من الأدواء ، ذلك التحصين الذى حلم به طويلاً . ليس فى استطاعتى أن أؤدى قصة ما جرى فى ذلك بالضبط ، لأن الذين كتبوا عن بستور اختلفت رواياتهم فيها ، ولأن بستور نفسه لم يشر فى كتاباته العلمية إلى الذى حدث ، ولم يقل قط إن الذى جرى له فى ذلك كان حظاً واتفاقاً . ومع هذا فأنا أقصها على أحسن ما أستطيع ، وأسد خللها على قدر الامكان

ففى عام ١٨٨٠ كان بستور يلهو بتلك المكروبة الصغيرة البالغة الصغر التى تصيب الدجاج فتميته بالداء المعروف بكوليرا الدجاج ، وكان الدكتور پيرُونسيتو Peroncito اكتشفها فوجدها ضئيلة بالغة فى الضآلة فلا تُرى بالمكرسكوب منها غير نقطة صغيرة ترتعد تحت أقوى المدسات ، وكان بستور أول باحث استطاع تربيتها نقية ، وذلك فى حساء صنعه لها من لحم الدجاج ، وبعد أن راقب هذه النقطة الراقصة ، وهى تتكاثر فى هذا الحساء فتبلغ الملايين الكثيرة فى الساعات القليلة ، قام فأخذ من الحساء قُطيرة فأسقطها على فُتيتة خبز ألقمها دجاجة ، فلم تمض ساعات حتى انقطعت وقوقة هذا الطائر المنكود ورفض الطعام وانتفش ريشه واستدار فكان ككرة من الريش . فلما أصبح الصباح جاءه بستور فألفاه يترنح على رجلين ضعيفتين ، وعيناه فى اغماض من نوم غامض انقلب سريعاً الى نوم أبدى عميق